النبوة : اصطفاء وقدوة

للشيخ أحمد مختار البزرة المدرس بكلية الدعوة

إن العالم يتطلع في هذا العصر إلى أمة تتحمل الواجب المقدس في الدفاع عن الانسان هذه الأمة يجب أن تصير قدوة ، ولا تصير قدوة إلا إذا عرفت في تاريخها مثلاً يحتذى

المحاضرة الرابعة في الموسم الثقافي لعام ٨٩-٩٠ الذي تقيمه الجامعة الاسلامية بالمدينة وقد القاها المحاضر على جمع غفير من رجال العلم والحجاج وطلاب الجامعة بمقر دار الحديث بالمدينة .

يعيش انسان العالم المعاصر أياما شدادا : تظله غيوم التشاؤم ،ويملأ نفسه اليأس ، انه في عالم العصر الحديث : عصر المدنية الغربية الذاهبة شرقا وغربا : مدنية المعجزات العلمية والمخترعات الباهرات ، مدنية شق صانعوها أجواء الفضاء وحزموا الحقائب للسفر الى الكواكب: مدنية فتحت لاعينها آيات رائعات على عظمة القدرة الخالقة ودلائل على البارىء المقدر الحكيم ! ومع ذلك فان انسان هذه المدنية في قنوط وعجز وخوف : خوف من مدنيته التي شيدتها يداه ، ينظر في كل مكان فيرى رؤوس القنابل النووية في البر والبحر والجو مشرعة تريد أن تنقض ، فيغمض عينيه ويهرب بنفسه الى دنيا الوجوديين والعراة والخنافس والمخدرات : خوف على خوف اذا وضع يده على قلبه انكره . انسان هذه المدنية يلوك خيبة مريرة : لقد قضى قرونا بحثا عن السعادة والمعرفة والحق والخير والجمال ، وأقام دهرا طويلا يتشدق بالحرية والعدالة والمساواة ، لكنه

أخفق فى تحصيلها ، وأخذ بنفسه وبالاخرين لما فرض نفسه وحضارته عليهم دليلا وقيما • فأشقى نفسه وألقى على أمم الارض الشقاء •

انسان هذه المدنية ـ على عديد تجاربه فى الحياة وضخامة وسائله وامكانياته ـ ليس كالانسان الذى كرمه خالقه اول مرة وأمر الملائكة بالسجود له • انه انسان فقد نقاء الفطرة ، وانحط عن مرتبة الكمال الامثل ، انسان رضى بالارض قسما وباع السماء بيعة وكس ، وقطع بينه وبينها الاسباب وعاش فى الارض للارض لا لربه ولا لنفسه،ومنها اشتق معناه الوجودى : معنى ماديا بحتا ، ووزن نفسه بترابها : بذهبها أو حديدها او نحاسها أو زيتها او حبها فلم يعرف لنفسه قدرا وقيمة الا بمقدار ما جمع منها وما حاز • وكان الوزن عند الله الحق والعدل والخير والامانة •

كأن هذا انحرافا كبيرا عن الصراط المستقيم الذى هدى الله اليه الانسان : انحرافا قذف به الى الجانب المظلم الداكن من الحياة : الى الخوف بعد الامن •• الى الظلم بعد العدل•• الى العبودية بعد الحرية •• الى الفقر بعد الرخاء •• الى الشقاء بعد السعادة •• الى القلق بعد الطمأنينة •• الى الكفر بعد الايمان •• الى الحرب بعد السلام •

ويقف هذا الانسان وقد أعد كل شيء للحرب والفتك ليخادع نفسه كما خدعها مرارا وليبحث ويتحدث فى السلام •

يا لها من أغنية حلوة عذبة ! كذلك يتغنى السجناء بأناشيد الحرية من وراء القضبان •

قالت خديجة رضى الله عنها « الله السلام ومنه السلام » (١)وحق ما قالت ، فمن أراد السلام فليلتمسه فى حمى الله : فى شريعته ومبادئه • وأية جدوى فى البحث عنه فى قلوب خاوية من تعاليم الرب لم تبق فيها شهوة المادة شعاعا من نور ، ولا نبضة من رحمة ؟

ان السلام ينبثق من المحبة ، والمحبة تتفجر من الايمان • وان الحرب تلدها البغضاء ، والبغضاء سليلة الكفر والالحاد • اذن لا أمل للانسانية فى سلام ونجاة وللكفر والالحاد فى الارض دولة وسلطان •

ان خلاص الانسانية الحقيقى أن تجد سبيلا الى محبة : محبة خالصة منزهة وليست هى فى المادة ! فان المادة تستولى على قلب الانسان ولا تورثه الا أثرة و شحناء • وليست المحبة فى الالحاد ، فان الالحاد فى حقيقته حقد جاحد : حقد مخلوق متكبر على الخالق المنعم • وكيف يعطى قلب خلا من الايمان جاحد بموجده ،

---

(١) ابن هشام م ١ ص ٢٤١ • تحقيق مصطفى السقا وزملائه •

حاقد على ربه محبة صادقة نقية معينة ؟ وهل يجتمع نقي الحب وأسود الحقد فى قلب واحد ؟

ان مستنقع الحقد لا ينبت فيه الا الخبيث ، وان الالحاد فحمة الحقد على نور السماء •

تعيش البشرية هذه الايام الشداد ، وعلى الذين يستطيعون أن يقدموا لها شيئا فى انقاذها أن يسرعوا فى أداء واجبهم قبل انتحق من الله كلمة العذاب •

ان الدول الكبرى قدمت ما عندها للاخرين : قدمت القوة المادية الجبارة التى لا ترحم • وقالت هذه الدول كلمتها البقاء والحق للاقوى فقضت بذلك على آمال الانسانية التاريخية بالعدالة والاخاء لقد قالت هذه الدول كلمتها الاخيرة ، وما فى كلمتها الا الاستعباد والظلم والاضطهاد وخنق الروح والضمير • وان الواجب يفرض على أولئك الذين عرفوا فى تاريخهم وشريعتهم قانونا غير الظلم والاستعباد أن يقولوا كلمتهم •

ان الدول الكبرى قالت كلمتها ، وحيل بيننا نحن المسلمين وبين كلمتنا أن نقولها فى حاضرنا ومستقبلنا وفى حاضر الانسانية ومستقبلها • وانى لاقول – وما قولى بادعاء – ما على ظهر الارض أمة غيرنا عندها للحق بيان ومنهج ، فان كتابنا يحتفظ بكلمة السماء فى صفائها الازلى الاولى،

وان تاريخنا يشهد بواقع تطبيقى حسن لهذه الكلمة •

ان العالم يتطلع فى هذا العصر المضنى الى أمة تتحمل الواجب المقدس فى الدفاع عن الانسان واخراجه من الظلام الى النور : أمة تستطيع بما فيها من ذخر روحى ، وما عندها من قيم الهية أن تكون أرقى بنى الانسان فكرا وشعورا وانبله غاية وهدفا ، وأقدره على تسلم القيادة فى معمع الاخطار • هذه الامة يجب ان تصير قدوة، ولا تصير قدوة الا اذا عرفت فى تاريخها مثلا يقتدى ، فريدا كاملا من البشر : كاملا فى انسانيته : فى حبه الخير وبغضه الشر ، لا عوج فى طريقته ولا انحراف فى شخصيته : تجده كتلة من المعانى الخالدة متجسدة فى كلمات ، وعمل وتنظيم • اذا اتبعته أمته ، وتبنت أهدافه ، ورفعت شعاره ، وانطلقت فى دروب سيرته صارت حياتها اشبه شىء بحياته •

هذه الامة التى تستطيع ذلك باذن ربها هم المسلمون ، وذلك المثال الرفيع هو محمد صلى الله عليه وسلم •

انه لم يبق لنا فى هذه الايام الشداد الا أن نعود الى نبع الفطرة الصافى نستقى منه : انه لا بد من العودة الى الانبياء •

ولقد جاء كبار الرسل أممهم على حال لا تختلف بما فيها من قلق وظلم وفساد والحاد وانحدار فى القيم

الانسانية عن عصرنا • فلنقف اذن لحظات مع :

١ـ مع عصر النبوة •

ولننظر ٢ـ فى اصطفاء الذات النبوية •

ولنتأمل ٣ـ فى اعداد الله للرسول :

أـ اعدادا نفسيا

بـ التمهيد لظهوره تاريخيا •

جـ والتهيئة له اجتماعيا •

فاذا احطنا بذلك بدت لنا :

٤ـ ضرورة القدوة •

أـ عصر البعثة النبوية :

لا مراء فى أن عصر البعثة النبوية عصر ممتاز بين الاعصر الزمنية ، له فى علم الله ميعاد معلوم كسر من اسرار الغيب ، حتى يأذن الله بانزال رسالته على عبده المختار • (ولوددت لو يتسع للقول مجال للحديث عن خصائص عصر النبوة ، لكن المحاضرة تضيق عن هذا القصد • حتى الحديث الفائض عن عصر البعثة المحمدية يزيد على حظنا من الوقت • ومن ثم أجتزىء بالكلام عن العام الذى ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعلنا نظفر بفائدة وحكمة) •

فليس من شك اذن أن الله يختار للنبى عصره ، ويؤقت له : ميلاده ، ومبعثه ، ووفاته • ولقد قال تعالى لموسى عليه السلام بعد أن ذكره بأطوار ماضية وكلاءته له فيه « ثم جئت على قدر يا موسى » (١) وكذلك فان ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم على قدر وموعد الهى مع الزمان ، وكان عام الفيل الذى ولد فيه عاما فاحلا فى تاريخ الانسانية ، عاما مليئا بالاحداث الضخام • أقبل فيه أبرهة الاشرم يريد هدم الكعبة بعد أن نجح الاحباش فى احتلال اليمن • ومات أبرهة قائدا جلدا طموحا بعيد الاهداف ، قد أزمع أن يجعل من اليمن قاعدة ملك له تنطلق منها عساكره للسيطرة على جزيرة العرب سيطرة سياسية وعسكرية واقتصادية ، وان يشد اليه قبائل العرب المتنافرة المتدابرة بخيوط واوتار يحركها ويضرب عليها كيفما شاء • وأعمل ابرهة الفكر وكان ذا نظرة استعمارية داهية ، لا يعوزها شىء من حنكة المتخصصين باستعمار الشعوب فى العصر الحديث ، فصمم خطته لتحويل العرب تحويلا دينيا يجعل الطريق أمامه معبدا ذللا لتحقيق اغراضه الاستعمارية • وهو أمر لا يختلف فى شىء عن الغزو الفكرى وأهدافه الذى يستهدف العرب والمسلمين اليوم • وكان ابرهة نصرانيا فأراد حمل العرب على اعتناق النصرانية بالمكر والسيف ، فكان صاحب أول حملة صليبية فى التاريخ على بلاد العرب • وهذا ما أدركه العرب واضحا من

---

(١) سورة طه ، الاية : ٤٠

غرض تحركاته العسكرية ،وأفصح عنه عبد المطلب وهو اخذ بحلقة باب الكعبة يستغيث الله :

لا هم ان العبد يمنع
رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم
ومحالهم غدوا محالك (١)

وكانت الكعبة منذ اغوار الزمن مثابة العرب وأمنهم ومهوى افئدتهم يلتفون حولها بمشاعرهم وشعائرهم في جو من الرضا العضوي والتقديس لما كان لمقام ابراهيم من منزلة في قلوبهم ، وارتقت مطامع ابرهة الى القضاء على أسباب وحدة العرب الروحية المتجمعة في الكعبة واستبد به التفكير في تهديمها فجاءت خطته تعد في الحقيقة لتغيير جذري في مرافق العرب ومستقبلهم (خطة لا تختلف في كثير عن خطة اليهود في تحريق المسجد الاقصى وزعزعة قواعده لقطع صلة المسلمين بمسجد يشدون اليه الرحال) • وقدمأبرهة لهذه الخطة النكراء ببناء القليس « كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشيء من الارض » (٣) وأوضح الغرض منها في تقرير أرسله الى سيده ملك الحبشة يقول فيه : « لست بمنته حتى أصرف اليها حج العرب » (٤)

ولما عرضها للعرب لم تهو اليهاأفئدتهم وانكروا مضاهاتها لمقام ابراهيم عليه السلام ، وأحدث بناؤها رد فعلعنيف في نفوسهم تجلى في اعراضهم عنها ونهوض بعضهم للتعبير عن سخطهم ونقمتهم وهوانها عليهم بأساليب خاصة فردية فأيقن أبرهة بافلاس القليس ما دام للعرب حول الكعبة مقام فبيت غزو مكة وتهديم كعبتها المشرفة ، وعبأ جيشه واعلنبالزحف•

ولم يكن طريقه الى مكة لا أشواك فيه ، اذ من العسير على العرب أن يتسامعوا بغزو بيت الله الحرام فلا يستثارون ولا يثورون • فهب فريق ممن أوتوا حمية وغيرة يعترضون جيش ابرهة اللجب • وكانت اولى المقاومة من قوة يمانية على رأسها الملك ذو نفر (٥) صمد لابرهة بقبيلته وجماعات من العرب ، ولم يكن ثمة تكافؤ بين الفريقين ، فاحاط بهأبرهة وأسره وكبله وسيره في الجيش تشهيرا وتخويفا وردعا للاخرين• على أن مصير ذى نفر لم يمنع قوة عربية اخرى من المقاومة من قبيلة خثعم بقيادة سيدها نفيل بن حبيب (٦) فلم يثبت الا يسيرا حتى اسر وأدني للقتل ولكنه أعلن ولاءه وولاء قبيلته الكبيرة لأبرهة وتطوع أن يكون دليله

---

(٢) ابن هشام : السيرة م١ص٥١

(٣) ابن هشام : السيرة م١ص ٤٣

(٤) المصدر نفسه : م١ ص ٤٣

٥- المصدر نفسه : م ١ ص ٤٦

٦- المصدر نفسه : م ١ ص ٤٦

فى طريق مخوف • فرضى أبرهة من ذلك ليأمن ظهر الجيش وليستفيد من حصر القوى العربية معه • وكان من خطته أن يتحاشى سفك الدماء ما استطاع حتى يأمن الثارات والحزازات ويضمن للمستقبل صفاء القلوب • ولما حاصر ثقيفا فى الطائف خرجوا اليه وأعلنوا الطاعة والعبودية لابرهة ورضوا بان يهدم بيت الله على أن يسلم لهم بيت اللات (١) وقد كشف اخفاق المقاومة العربية عن نواح خطيرة فى واقع العرب :

١ـ عظم مكانة الكعبة فى نفوسهم واستعداد العرب للقتال فى سبيل بقائها • ولكن هذه النية الحسنة لم تظفر بالقدرة المنفذة •

٢ـ عجز قوى المقاومة عن اجتماع بعضها الى بعض وتنسيق خططها •

٣ـ انشغال غالبية العرب فى الجزيرة وخارجها بخصوماتهم المحلية، وعداواتهم القبلية واحقادهم التاريخية عن الاحتشاد لقضية كبرى فىحياتهم ومستقبل وجودهم ، وجعلها فوق العداء القبلى والخصومات السياسية • وقد عانت جزيرة العرب قبل الاسلام عبر أمد مديد حروبا وغزوات فيما بين القبائل ، فاستنزفت قواها فى غير طائل ، وغرقت فى الحروب حتى كادت تتفانى ، ولهذا ،ولم تستطع أن تتناسى الخصام العنيد والعداء المميت وان تنسلخ من أضغانواحقاد تتوارثها جيلا بعد جيل • فبات تلاقيها أمرا مستحيلا استحالة التقاء الماء والنار • ولعل هذه الحال تكشف عن المعنى العظيم فى معجزة الله فى قوله لنبيه صلى الله عليه وسلم « وألف بين قلوبهم ، لو انفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله أنف بينهم، ، انه عزيز حكيم » (٢) • هكذا كانوا يوم أصحاب الفيل فى استعصاء على الالتقاء فى سبيل أية قضية حتى ألفت بينهم كلمة التوحيد ورسالة الله •

٤ـ ضعف القوة المعنويةوانخفاض المستوى النفسى لدى المقاومين منهم : اذ سرعان ما ألقوا بأيديهم الى الاستسلام وحرصوا وكانوا أشد حرصا على حياة ، ورضوا بأن يكونوا عبيدا واعوانا وعملاء فى صفوف الاعداء يكشفون لهم الطريق ويتحسسون لهم أحوال القبائلالاخرى مما يدل على أن الحياة تديهم كانت بشكلها الرفيع أو الوضيع ، الذليل أو العزيز أحب اليهم وأغلى عندهم من أية قضية لهم • بللاأجحد التاريخ اذا قلت ان العرب قبل محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن لهم قضيةيضحون فى سبيلها الا قضايا خفيفة جزئية تأكل منهم ولا تعطيهم ، قضايا العداء والثأر المحلى •

١ـ المصدر نفسه : م١ص ٤٧

٢ـ الأنفال : الاية ٦٣

ويظهر جلاء الامر اذا قابلنا بين موقفهم من أبرهة وموقف العرب المسلمين من أعدائهم الكفرة : قيل لزيد ابن الدثنة وهو يقدم للقتل « أتحب أن محمدا عندنا الان فى مكانك نضرب عنقه ، وانك فى أهلك ؟ قال : والله ما أحب أن محمدا الان فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة .. تؤذيه ، وانى جالس فى أهلى » (١) .

وكان قياصرة الروم احيانا يروزون حرص المسلمين على دينهم فيغرونهم الاغراء المذهل ليفتنوهم ، فما ينفصمون من دينهم شعرة فيبلس القياصرة من ثباتهم ويقينهم ، ذلك أن صار للعرب قضية يعيشون لها ، ولا يجدون شيئا باهظا أن يستشهدوا فى سبيلها . ولا يفلح عرب ولا مسلمون لا قضية لهم ، وخير القضايا طرا قضية السماء .

٥ــ الانقسام والسطحية فى العقيدة:
ولعل أفدح العوامل فى مأساة العرب عام الفيل ، وفى كل مأساة من مآسى تاريخهم كله ، خمود نيران الحمية الدينية فى القلوب ، وفقدان الاشداء من المؤمنين : أعمدة الثبات والتثبيت فى الملمات والحروب . فبينما كان أعداؤهم الاحباش يتقدمون الى بيت الله الحرام بحمية صليبية طاغية ، كانت أفئدة العرب خلوا من شعور دينى مقدس دفاق قادر على دحر الموجة الصليبية . ولو فتشنا قلوبهم يومذاك لما وجدنا فيها حقيقة من حقائق الدين ، ولا معنى واضحا من معانيه يعتصبون به وينطلقون منه . كل ما فيها يومذاك ظلال من دين ابراهيم غمرها من الوثنية غبار كثيف .. وأفسدت عليهم الاصنام دين التوحيد وباعدت بين معتقداتهم وقلوبهم وألقت البغضاء بينهم اذ ذهبت كل قبيلة بصنم ، تعبده دون القبائل الاخرى ، فكان هذا الانقسام فى الدين عاملا خطيرا فى تفتيت وحدتهم كاملة لها دور فى التاريخ . حتى صارت بعض القبائل لا تجد ضيرا فى تهديم الكعبة اذا سلم لها الهها كما رضيت ثقيف بذلك على أن تبقى لها اللات وجرى العرب فى عبادة الاوثان على تقليد ذميم وليس لها فى طباعهم وتفكيرهم أصالة واستقرار . ولم يكن فى مقدور الاوثان أن تلهب القلوب بحمية ما . فاجتمع لهم الى الانقسام السطحية فى الدين، وهو داء عياء خذال قتال فى المواقف الكبرى التى يتقرر فيها المصير ، وكان العرب يومذاك بما هم عليه من هذا على شفا الضياع والهلاك : لئن لم يخلعوا الاصنام التى قسمتهم والوثنية التى أماتت شعورهم وحميتهم ذهبوا وضاعوا وهلكوا . ولهذا لما أراد الله بهم خيرا بدلهم

١ــ السيرة لابن هشام : م٢ ص ١٧٢ والقائل هو أبو سفيان بن حرب .

بعقائدهم المشتتة الباهتة المميتة عقيدة التوحيد المجمعة المتألقه بالنور ، الدفاقة بالحياة • قال تعالى يذكرنا بهذه النعمة الكبرى والمنة العظمى « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفاحفرة من النار فأنقذكم منها » (١) ولا غرو أن المعجزة الرائعة التى حققها المسلمون فى مجال الفتوح والدعوة ما كانت لتنجز على أيديهم لولا العقيدة الجديدة : عقيدة التوحيد التى وحدت القلوب والصفوف والخطط والعمل •

لماكر ابرهة الاشرم فى الطائف الى مكة يتقدمه ابو رغال الثقفى دليلا علم أن قد صفى المقاومة العربية بأدنى جهد وأبخس ثمن • والحق أن ابرهة لم يعوق مسيره من اليمن الى مكة حرب ضروس ، وانما مناوشات يتبعها استسلام وخضوع وتبعية • ورضى أبرهة عن هذه النتائج أيما رضا اذ وفرت عليه الوقت والجهد والدماء، ولم يخامره شك فى أنه أوفى على بلوغ مأربه عندما انزله ابو رغال بالقرب من مكة • وقد طمع أن يظفر من قريش بمثل ما ظفر من ثقيف وغيرها : بتسليم كلى ليبلغ ما أراد من تهديم الكعبة برضا من أهل الحرم على مشهد من العرب وعلى اسمع العالم وبصره ليدعى هوان أمره على أهله ، وامعانا فى الامتهان لسكانه والمهانة لحجاجه وقاصديه • وانطلاقا من هذا القصد أرسل دورية تأديبية هجمت على اموال لقريش فساقته الى المعسكر ، ثم بعث رسولا الى قريش يطلب اليهم أن يرسلوا اليه بسيدهم لمباحثته • فوجهت اليه بسيدها : بعبد المطلب بن عبد مناف بن هاشم : شيخ وقور مهيب جاوز المئة من عمره ، جرب الايام وجربته فطن يضع القول مواضعه مخلص للبيت ولرب البيت ، فسلك أبرهة مسلكا لارهابه وادخال الوهن عل نفسه ليسهل فرض رغباته وطلباته عليه • فأوعز الى رجاله ان يطوفوا بعبد المطلب على الاسارى من أسياد العرب وملوكهم، فأدخل على ذى نفر وكان فى الحديد ، ورأى نفيلا الحنفى واخرين مقهورين على أمرهم يقومون بخدمة ابرهة ورجاله •فحزت المرارة فى نفسه اذ رأى رجالات العرب قد هزموا نفسيا وعسكريا • وعرف عبد المطلب أنه مقبل على معركتين مع أبرهة: نفسية وعسكرية • وأيقن أن الثانية لا نفع فى خوضها فرغب عنها غير مستسلم وأما الاولى فصمم على الثبات فيها • ولما أذن له بالدخول على أبرهة دخل ميدان الحرب النفسية ونظر أبرهة فى وجه عبد المطلب بحثا عن معانى الخوف والفرق والتخاذل فلم يجد شيئا ووجد مهابة وصرامة وحفاظا •

١ــ ال عمران : ١٠٣

وفرضت شخصية الشيـــخ المهيب الثابت الوقور نفسها على الغـــازى فانحط عن عرشه وجلس على البساط وأجلس سفير قريش وسيدهـــا الى جانبه ، لعل اللين والتواضع اجدى اذ لم ينفع التخويف والترهيب ٠

كانت هذه مظـــاهر من الحفاوة والاكرام اصطنعها الداهية ليستميـل اليه عبد المطلب وليبعث فيه ثقـــة واطمئنانا اذ بدا لابرهة ان مقدرات مكة وكعبتها أمست بين أنامله وان قريشا فى قبضته : رجالها ونساءها وأموالها ، وان جيشه قادر على الفتك وانزال العار ٠ وكان ابرهة يريـــد الكعبة لا قريشا واستقدم عبد المطلب ليهب أبرهة له قريشا وليأخذ منـــه الكعبة فيظفر بما أراد وقدمن عـــلى قريش وسيدها وأفضل ٠ وأما عبـد المطلب فقد جاء أبرهة وهو يحمل معه أمانتين : أمانة الله فهو حاجب الكعبة وساقى الحجيج ، وأمانة قومه فهـــو نائب قريش وصاحب كلمتها فى هذا الموقف الصعب ٠ ولقد توقع أبرهـة أن يتهالك عبد المطلب على كرسيـــه يطلب رحمته كما فعل من قبلـــه ، وأدرك عبد المطلب ما فى نفس أبرهـــة فصمت ، ولم يفتتح الحديث تجاهلا منه للامر العظيم الذى يريده أبرهـــة ، وتحاشيا أن يطلب مطلبا يتخذ منـه أبرهة ركيزة للمساومة على الكعبة ٠

لقد كان عبد المطلب فى موقف ضنك فان أية كلمة تحمل معنى الاسترحام لقريش والابقاء عليها تنطوى عـــلى تنازل خطير فى حق بيت الله الحرام ٠ ومن ثم آثر ألا يتكلم فى منجاة قومه حتى لا يضيع أمانة الله ولما ضـــاق أبرهة بصمته سأله عن حاجته فقال: « حاجتى أن يرد على الملك مئتى بعير أصابها لى » أهذا المطلب كان هم عبد المطلب ومصدر قلقه ؟ ألهذا طيف به فى الجيش وعلى الاسارى واستقـدم الى الملك ؟ وماذا يفعل بالشاء والبعير ومكة كلها فى خطر داهم ، كلا لم يكن هذا المطلب من واقع الحساب فى شيء، ولكن عبد المطلب عمد الى تجاهل مراد أبرهة تجاهلا تاما ليعلمه أن لا تنازل عنده فى حق بيت الله الحرام ولو قيد شعرة ، وان التسليم بتهديمه ليس موضوع بحث على الاطلاق ولا مساومة فيه ٠ وفهم أبرهة ما فى طلب القرشى من معنى فاستشاط غضبا وعمد الى اثارة الموضوع من قبله قائلا وهـــو مغيظ « قد كنت أعجبتنى حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلمتـــنى ، أتكلمني فى مئتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ، ودين آبائك ، قد جئت لهدمه ، لا تكلمنى فيه » (٢) وأجاب عبد المطلب بقول مرهف حاسم لا مجال بعده لجدال أو ادهان (انى أنا رب الابل ، وان للبيت ربـــا

١ـ السيرة لابن هشام : م١ ص ٤٩

٢ـ السيرة لابن هشام : م١ ص ٥٠

سيمنعه) (١) وخرج من عند أبرهة الى قومه خرج من المعركة النفسية منتصرا ، ولم يظفر منه الملك بطائل ، ولقد كان فى الكلمات الموجزة الحادة كل ما اراد عبد المطلب ان يفصح عنه وان يفهم الغازى. قال له: أنا رب الإبل: الابل مال اكتسبته واكتسبته قريش فلى ولهم الحق أن يطلبوه ، واذا كان لى ولهم الحق فى طلب او مباحثة او جدل فيما هو ملك لنا ومن حقنا . وأما البيت فهو بيت الله وليس لى ولا لاحد فيه من الحق كما فى الابل ، ولا يحل لى بحال من الاحوال أن أتكلم فيه ، أو أساوم عليه ، أو أتذلل لك فى أمره فان ربه أولى به وبحمايته ان عبد المطلب قد أوضح فى هذا القول البليغ الحدود التى تقف عندها صلاحيات الزعامة ، والموقف العدل الحق الذى ان التزمه الزعيم كان من الموفقين . فبين فيه أن ثمة حقوقا كبرى فى حياة الامة وذمما تاريخية والهيه لا يحق لأى ذى سلطان أو نفوذ أن يمسها وأن يجعلها فى مهب أهوائه ومصالحه ان شاء أخفرها أو ساوم عليها . وان التاريخ يشهد بأن النصر يقف دائما حيث يقف أولئك الزعماء الذين يلتزمون الحق الاعلى لا يجاوزونه ولا يقبلون به عدلا أو حلا وسطا . وقد رضى الله لعبد المطلب صلابته فى حرمة بيت الله وثباته فأرسل على الغزاة العتاة جندا من السماء (طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول) (٢) . وما كان هذا التوفيق الالهى فى تلك الساعة لعبد المطلب نفسه وانما لجنين فى رحم آمنة بنت وهب قد بلغ منه سبعة أشهر وكان أبوه فى تلك الاثناء فى يثرب يلفظ انفاسه الاخيرة وأمه تجلس فى بيتها تنتظر عودة زوجها الغائب وتترقب مع الناس قلقة أوبة جميعها فى معسكر أبرهة: هذا الجنين الذى اذن الله له أن يتنسم أنسام مكة بعد خمسين يوما من غزوة أصحاب الفيل هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، به قد وفق الله جده واكرمه واكرم العرب والعالمين .

كانت هزيمة أصحاب الفيل وما زالت آية من آيات الله ومعجزة من معجزاته جعلها بين يدى مبعث رسول الله (ص) ، وكانت المنة بها على أهل مكة عظيمة ، ولكن القوم كانوا فى جاهلية ظلماء فما أن ذهب عنهم الروع وفزع عنهم حتى عادوا يسدرون فى غيهم ومظالمهم ومفاسدهم . ولم تكن الاشارة التى حملتها المعجزة لتنزعهم من الغى والضلال ، فأتم

١- المصدر نفسه . وكان التحدى اعظم اذ قال له ابرهة : ما كان ليمتنع منى . فقال له عبد المطلب : أنت وذاك.

٢- سورة الفيل .

الله عليهم وعلى العالمين فضله بمعجزة أعلى وأسمى فأرسل اليهم محمدا (ص) ليبوئهم مكانا عزيزا كريما :فى عام الانقاذ هذا ولد المنقذ الاكبر محمد رسول الله (ص) فجاء العرب وهم أعجز الناس عن حماية حوزتهم وحرمهم ورد الغزاة فلم يلبثوا الا يسيرا حتى صنع الله منهم فاتحى العالم ومنائر الحق والحكمة ٠

هكذا كان ماضى أجدادنا عام الفيل ما أردنا من تفصيل الحديث فيه الا الذكرى والاعتبار ٠ وأيم الله « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد » (١) ٠

٢ـ اصطفاء الذات النبوية ٠

الاصطفاء انتخاب الله صفوة البشر ليكونوا المثال الواقعى الحى للمثل الالهية والقيم الربانية التى ارتضاها للبشرية شرعة ومنهاجا ، تخوض بها تجربة الحياة والابتلاء بغية النجاة والظفر بمرضاة الله تعالى٠

ان تجسيد القيم فى أفعال وخطط يعطيها معناها الامكانى الحق اذ يتعرف الناس على هذه المثل فى واقع حياتى حى ، فتلتحم الفكرة العلوية بصورتها الارضية ، وتجرى الافكار والتعاليم الالهية ملموسة دفاقه فى الارض جريان السيل لاظن ولاتوهم ولامراء ٠ ومن ثم ينتخب لها اولئك الذين تبدو العقيدة فيهم رائعة الجلاء والنقاء كما ينم البلور ذو الصفاء عما حوى ، حتى انك لا تميز بين الوعاء وما وعى ٠ هؤلاء الصفوة يتولى الله سبحانه اختيارهم وهو العليم الخبير ، ويجعل فيهم بقدرته ومشيئته الاستعداد للنبوة ليكونوا حقائق العقيدة المتحركة على الارض ٠ هذه النخبة يمكن ان يقال فيها : انها ليست وليدة بيئتها ولا من صنع مجتمعها ، انها جنس منفصل وجد كالغريب فى بقعة نائيه ٠ وانها لتحس بغربتها قبل أن يأتيها خبر السماء وتتجافى عن ضلال الناس كأن عالمها غير عالمهم وكأن قوة علوية تجتذبها اليها : (تلمس آثارها وتشعر بتأثيرها فيما يجرى لها ولكن تبقى محجوبة عن السر حتى يكشف الحجاب ويأتيها الوحى) فيتصل حبلها المقطوع بالعالم الذى كانت تستشعر وجوده ولا تدرى كنهه ، وتجد نفسها بعد ضلال « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى » (٢) وتعرف حقيقتها ومهمتها فيزول عنها الاحساس بالغربة ، وتستشعر نفسها وكيانها بقوة وتمكن ، وتأخذ فى التلقى من الله تلقيا تلقائيا آنيا فلا تتردد ولا تتحرج ولا تجادل ولا تمارى ، وانما تستجيب للامر وتمتثل للكلمة الالهية آنيا كما ينبثق النور آنيا لا يدرى أول شعاعه من آخره لسرعته ، تلك الاستجابة التى تلمس حقيقتها فى ابراهيم ٠٠ « اذ قال له ربه أسلم

١ـ سورة ق :٣٧

٢ـ الضحى : ٦،٧

قال أسلمت لرب العالمين » (١) ولم لا يسلم للحظته وقد بحث طويــــلا عن ربه فى ملكوت السموات والارض فلما اجتباه ربه وكشف حيرتــــه وهدى ضلاله لم يبق الا الامتثـــال والتلبية • عندها يعلم المصطفى المختار أسباب عزوفه عن قومه ونفوره من تقاليدهم وعباداتهم ، ويوقن أن عناية الله كانت تلاحظه قبل الوحى الصريح والخبر الوثيق فيلجأ الى ربه ليستمد منه وليستضىء بنوره ويغرف من معين هديه • وتتمايز نفسه تمايزا كليا عما حولها وتصبح قوة فعالة تأتى بالمعجزات ولا تبالى بالمعوقات • فلاتهاب ان تدخل معبد الوثنين والفأس بيدها تهزأ بالاصنام وتجعلها جذاذا ثم تقف وحدها تتحدى صخب الجمهور الضال، وطغيان الحاكم الجبـــار والتحريق بالنار ، وتقابل التحدى العجاج بتحد صليب مرهف نافــذ • ولا عجب أن تقف وحدها على الصفا لتقول كلمتها المأمورة بها وتبلغ رسالتها المنوطــة بها • وليس عجيبا أن تقول « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الامر ، حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ، مـا تركته (٢) لانها أيقنت أن معــــنى وجودها هو اداء رسالة الله ، فان لم تؤدها فلا معنى لبقائها • ولهذا تبلغ فى الاستبسال مدى لا تحتمله النفوس الاخرى ، وفى الصبر شأوا يعجز عنه أولو العزم فى غير الانبياء ، وتصبح شجاعتها وصبرها موضع الدهشــــة من الخصوم •

وهذا التحدى المنتصر : تحــدى فرد وحده لامة أو لامم لا يصدر عن أفراد عاديين ، اذ لا يملك فرد مستضعف أعزل أن يغير نظام العقيدة ،والمجتمع والتاريخ لامة الا اذا ايدته قوة قاهرة على القوى فاستمد من ذخرها للصمود والهجوم والانتصار • ان هؤلاء الافراد الذين اختارهم الله وخلق فيهم هذه القدرات والامكانيات هم وحدهـــــم أمم ، فان كلا منهم مبدأ أمة جديــدة وتاريخ محدث ، جمع الله لــــه فى نفسه القوى اللازمـــــة للمستقبــل الجديد ، فسرت منه الى قلوب الاجيال قال تعالى :« ان ابراهيم كان أمـة ، قانتا لله ، ولم يك من المشركين »

وفى القرآن الكريم اشـــــارات واضحة الى تلك الصفوة المختارة فى ملايين البشر المبعوثين فى الارض قال تعالى مخبرا عن طريقته فى الارسال: « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ان الله سميع بصير » (٣) وهو يعلم اولئك الذين يطيقـــــون النهوض بتبعاتها اذ : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (٤) ومن ثم كـــان اصطفاؤه لافراد مخصوصين متميزين

١ـ البقرة : ١٢١
٢ـ السيرة لابن هشام : م١ ص ٢٦٦
٣ـ النمل : ١٢٠
٤ـ الانعام : ١٢٤

ذهبوا بخلود الذكر فى الدنيا والآخرة : « ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » (١)

وهؤلاء الاصفياء ـ على تباعد الزمان فيما بينهم بعضهم من بعض ، فان بينهم نسبا هو دين الاسلام الذى ارتضاه الله للبشر منذ أبيهم آدم ، ولما بعث خاتم الانبياء وسيد المرسلين كان اختياره من صفوة الصفوة : ان محمدا (ص) خير نسمة برأها الله بين سابق البشر ولاحقهم · ان اكمل الرسالات وخاتمتها تستلزم رسولا هو اكمل ما خلق الله من بشر وأطهر · وهذا أمر هيأ الله له الاسباب منذ آدم عليه السلام ، قال عليه الصلاة والسلام « بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى بعثت فى القرن الذى أنا فيه » (٢) وفى هذا الحديث الذى رواه البخارى دلالة كافية على انتخاب الهى مستمر خلال اجيال البشرية حتى استخرج منهم محمدا (ص) وكان استخراجه من بيت أوله النبوة قال عليه الصلاة والسلام فى حديث رواه مسلم « ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل واصطفى من بنى اسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » (٣) وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « أنا دعوة ابى ابراهيم (٤) فجاء رسول الله (ص) ملء نفسه وجسده الطهر ، اذ اختاره ربه من أطهر نطفة فى الاصلاب · روى عن عائشة رضى الله عنها قوله (ص) « ولدت من نكاح غير سفاح » (٥) وثبت فى الصحيح قوله « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » (٦) ولا عجب فهو مصطفى الاصفياء : طاهر مطهر ، وسيد الانبياء ·

٣ـ اعداد الله لعبده للرسالة

اذا كان لبعث النبى عند الله ميعاد معلوم فان أحواله وأوضاعه فى مختلف مراحل حياته جارية على

١ـ آل عمران : ٢٤

٢ـ ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٢ص٢٥٦ عن صحيح البخارى

٣ـ البداية والنهاية ح٢ ص ٢٥٦ : لابن كثير عن صحيح مسلم ·

٤ـ السيرة لابن هشام م١ ص١٦٦ · رواه ابن اسحاق عن ثور بن يزيد · وقال فيه ابن كثير فى المرجع السابق : هو اسناد جيد ·

٥ـ البداية والنهاية ح٢ ص ٢٥٦ · رواه الزهرى عن عروة عن عائشة · رواه ابن سعد فى الطبقات الكبرى عن ابن عباس : ولدت من لدن آدم من نكاح غير سفاح ·

٦ـ المصدر نفسه ص ٢٥٧

تقدير وتدبير من الله العزيزالحكيم : يختار له الوسط الذى يكتنفه ، والمؤثرات التى تحيط به ، ويفاعل بين نفسه وبين ما وضعه فيه ، فيخلق فيها ردود الفعل المناسبة للمستقبل القريب • ان الله هو الذى يصنع الانبياء ،وينشئهم النشأة المواتية للرسالة ، انه رب العالمين الذى تقبل مريم « بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلهازكريا »(١) وهو الذى صنع موسى على عينه ، ووضعه فى قصر فرعون آية كبرى من آيات التحدى لطغيان سادر ، غير مرعو ، لينشأ فى حجور الجبابرة ، ويخرج من عندهم أكبر ناقم ،وأشد ساخط على الظلم وتعبيد الشعوب •

ومن ثم لم يكن شىء فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم قبل المبعث الا بتدبير الله الخالص وتهيئته وقد يبدو أن كلامنا هذا تحصيل حاصل فكل ما فى الوجود انما هو بتقديره عزوجل • ولكن قلنا ما قلناه لنوجه الانظار الى أهمية الظروف والحوادث التى عاشها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لنكتنه مغزاها العميق ، ولنطيل الفكرة فى هذه التنشئة التى انتهت الى تفجير الحكمة الخالدة فى فؤاده تلك الحكمة التى رفعها الله نبراسا هاديا مشعا للبشرية الى يوم الدين •

ان حياة تتفتح عن الحكمة الكلية الاخيرة للانسانية لجديرة بالتفكر والتدبر والاعتبار وبأن تتأمل فى شكلها ومضمونها والاحداث التى صنعت مادتها •

أـ الاعداد النفسى :

كان أول وحى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غار حراء شديد الوطأة • لقد عانى حادثة غير عادية ولا مألوفة ، خفية العلة • ولا يفسر حدوثها بسبب من الاسباب الظاهرة (كما ينشأ الغيث فى السحاب ، مثلا) فان مصدرها ليس عالم الشهادة بل عالم الغيب • هنالك لا يسع الانسان الا ان يتلقى منه بالقبول المطلق والتصديق الكلى ، لان احداثه فوق منطق الارض المحدود بالسبب والنتيجة • لذلك لا يقدر على احتمال الوحى الا الانبياء الذين أعدهم الله للثبات عندرؤية الملاك ، وتصديق ما جاءهم من خبر السماء• ولم يصادف الوحى من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسا لم تهيأ لاستقباله ، بل جاءه بعد اعداد طويل من رب العالمين ، عرف فيه حوادث غيبية المنشأ ، لم يدر لها علة ظاهرة • فكانت مقدمة صالحة لاستقبال الوحى ، رفقا من الله برسوله ، ورحمة بنفسه البشرية •

وكأن بعض هذه الحوادث كانت تقول له قبل مبعثه : لست وحدك •

١ـ آل عمران : ٣٧

ولا لنفسك وانما انت للذى يعدك ويرعاك لتكون امرأ غير الاخرين ، وان فى غدك لامرا فترقبه • فتبعث فيه تساؤلا وتطلعا وترقبا ، وربما كان من شأنها أن حببت اليه العزلة والتحنث فى حراء • واستقبل أولاها وهو طفل مسترضع فى بنى سعد يوم جاءه الملكان فشقا صدره واستخرجا قلبه وغسلاه بالثلج والبرد • حادثة فوق امكان العقل الانسانى ولكنها على الله هينة لذلك لم يكد ابواه فى الرضاع يستمعان خبرها من فم الطفل البرىء الصادق حتى طارا به الى أمه فى مكة فزعا أن يكون بدأ به عرض مرضى اذ لم يستطيعا أن يصدقا طفلا فى أمر لم يألفاه • ومن أدراهما ان من بين أيديهما نبى منتظر ؟ ولكن الطفل لم ينس هذه الحادثة ، ومرت فى شعوره خفيفة الوقع وهو صغير ، فلما شب على الايام تألقت فى ذاكرته واحساسه ، ولا شك انها شغلت تفكيره حتى مبعثه ، فلما جاءه الملك ليلة الاسراء ، وشق صدره للمرة الثانية وغسل قلبه بماء زمزم استعدادا للسفر به الى الملأ الاعلى والمثول بين يدى الله تيقن أن حادثة الطفولة كانت احدى براهين النبوة ليتعرفها فى نفسه ، وليثبت يوم يزعزع كيانا فى غار حراء والملك يفته ويقول : اقرأ (١) ويوم يقول لخديجة رضى الله عنها ، مالى أى شىء عرض لى ؟ لقد خشيت على نفسى » (٢) فى هذه الساعات من الزعزعة الحيرة كان تذكر هذه الحادثة وما أشبهها أنفع شىء فى الثبات واليقين ، وتستبين حقائق الحاضر بدلائل من الماضى • وقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم مغزاها الكامل اذ سئل خبرنا عن نفسك يا رسول الله (٣) فجعلها عليه الصلاة والسلام احدى اربع علامات للنبوة عرفها فى نفسه • ومن يدرى ؟ ربما ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم طوال حياته يستشعر العذوبة والراحة النفسية التى أحس بها عندما استخرج الملكان من قلبه علقة سوداء وغسلاه بالثلج والبرد : اننا لنسمعه يقول فى دعاء له « اللهم اغسلنى من خطاياى بالثلج ، والماء ، والبرد» (٤)

١– سورة العلق : ١

٢– البداية والنهاية لابن كثير : ج٣ ص ٧

٣– ابن هشام : م١ ص ١٦٦

٤– الاذكار للنووى : ص٤٣ • ومن هذا القبيل ما كان يومىء اليه بالرسالة المقبلة بصريح اللفظ • قال عليه الصلاة والسلام :« انى لاعرف حجرا بمكة كان يسلم على بمكة، قبل أن ابعث • انى لاعرفه الان • (رواه مسلم) » وصدق رسول الله فان تسليم الحجر عليه قبل الوحى كان لتنبه فكره واثارة شعوره وتوجيهه الى استشراف ما هو غيبى المصدر •

وثمة حوادث تقصد مع تنبيه النفس الى حينانتها وحياطتها من الوسط الجاهلي • وللبيئة أثر في النفس لا يدفع ، وقد تولى على حفظ نفس نبيه صلى الله عليه وسلم من اقذارها واخطارها ، حتى يتم له الطهر ويسلم له النظر السليم ، والاحساس اليقظ وليفرق بين القيم الحقيقية التي هي كمال الانسان وبين القيم التي هي النقص والخسران • ولقد شاء الله ومشيئته حق ونور ـ أن تتمايز هذه النفس عن محيطها لتبصر مساوئه وتنقده نقدا دقيقا عادلا حرا، تنقده وهي تنظر فيه بنور الله ، نقدا لا يعرف الادهان ولا انصاف الحلول ، فان الحق لا يتجزأ أولا يجزىء بعضه عن بعض : اننا لنجد الله قد حمى نبيه أن ينكشف زاره عن العورة اذا تعرى الصبيان أو الرجال وهم يحملون الاحجار للعب أو لبناء الكعبة (١) وفي هذا صيانة لنفسه النبوية من أن تتأذى بما يبعث في النفس من احاسيس غير كريمة • وحماه من حضور مجالس اللهو والغناء وكان حييا • وكانت الكعبة تزخر بالاصنام وقريش تذبح لها في الاعياد ، فحال الله بين نبيه وبينها فلم يمس حياته صنما ولم يحضر عيدا لها • لقد فارق قومه في باطلهم مفارقة كبيرة ـ عرفتها عشيرته فيه قبل النبوة ، ومن أعجبها وقوفه بعرفة مع الناس ، على حين كانت قريش مما يقفون في المزدلفة •

ذلك ان الله أنعم عليه بالحس السليم الذي يميز بين الحق والباطل فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا وجد في قومه فضلا نوه به ومن هذا ثناؤه على حلف الفضول الذي تعاقدت قريش فيه على رد الحقوق للمضطهدين وعلى حماية الضعفاء منها ومن غيرها ، فقال فيه لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما احب ان لي به حمر النعم ولو أدعى به في الاسلام «لأجبت» (٢) ولعل هذه العدالة في الحكم ظاهرة الدلالة في قوله «بعثت لاتمم حسن الاخلاق » (٣) •

هذه الحوادث وأضرابها من ارهاصات النبوة لم يمنحها المحدثون من كتاب السيرة ما تستحق من عناية وبحث ، فتجاوزوا عن كثير منها ، ولم يتلبثوا عندها الا يسيرا • ولو أمعنوا النظر وتتبعوا احوال المصطفين والانبياء لوجدوا فيها سنة من سنن الله في اعداد انبيائه •

فمن ذلك رؤيا آمنة بنت وهب حين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم انه :

١ـ تقرأ البداية والنهاية ح ٢ ص ٢٨٧ ٢ـ السيرة لابن هشام :م١ص١٣٤ •

٣ـ رواه مالك في الموطـا في ص ٩٠٤(تحقيق فؤاد عبد الباقي) وهو حديث مدني صحيح متصل في وجوه صحاح

« خرج منها نور اضاء لها قصور الشام » (١) .

وحدثت آمنة وحيدها وأثيرها محمدا – صلى الله عليه وسلم برؤياها قريرة متفائلة بمستقبل ولدها . فلما أوحى اليه أدرك انها كانت احدى امارات النبوة فحدث بها (٢) .

فهل نجد ما يشبه هذه البشارة لدى أمهات الانبياء والرسل ؟ هل كانت تصدر اليهن الاشارات الالهية بمستقبل الصغير المنتظر ؟ نعم ، كانت هذه الاشارات الى بعضهن ابلغ فى الدلالة واجلى فى الصراحة ، بل كانت اعلاما واخبارا مكشوفا . فأخبر الله ام موسى عليه السلام وموسى فى أيامه الاولى « انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » (٣) واعلم الصديقة مريم بمستقبل عيسى قبل ان تلقى اليها الكلمة .. «اذ قالت الملائكة : يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والاخرة ، ومن المقربين» (٤) ولا شك ان وضع الصديقة الفريد كان أحوج الى وضوح الاعلام من آمنة ومن ام موسى ، اذ كانت تحتاج الى أن تصدق نفسها فى أمرها حتى تقوى على الصمود فى وجه تكهنات الناس وتخرصاتهم . ومن ثم حمل عيسى عليه السلام معه آية خلقه ونبوته عندما نادى أمه من تحتها حين وضعته (٥) وفى مخاطبته المجتمع المستنكر المتهم وهو فى المهد (٦) .

كذلك بشرت الملائكة نبى الله زكريا بيحيى عليهما السلام (٧)، ومن قبل جاءت ابراهيم البشرى باسحاق ويعقوب (٨).

هذه الدلائل هنا صريحة ولاعلام ام موسى بها ، ومريم وزكريا وابراهيم وزوجه اعلاما مكشوفا ، اسباب لا تخفى ، ولم يكن سبب منها لآمنه. فكان رؤياها النور الذى اضاء لها القصور من بصرى الشام رمزا للمستقبل . ولو أن الامر يتطلب ما فوق الرمز لجاءها من الله بيان . ولكنها أعطيت ما يكفيها لتتنبه لشأن وليدها . ولم يعترض حياتها وحياة وليدها من الظروف النادرة أوالخطرة او المغايرة للمألوف (كظرف ابراهيم

١– السيرة لابن هشام :م ص١٦٦ **٢– المصدر نفسه**

٣– القصص : ٧ **٤– آل عمران : ٤٥**

٥– مريم : ٢٣ : فناداها من تحتها الاتحزنى قد جعل ربك تحتك سريا .

٦– مريم ٣١ : قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا .

٧– آل عمران ٣٩ : فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين .

٨– هود : ٧١ وامرأته قائمة فضحكت ،فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب .

وزكريا) ما يقتضى الوحى ٠ فكان الرمز هو القدر المناسب الكافى ليبعث فى نفس آمنة التوقع والتفاؤل ٠

بـ التمهيد التاريخي للرسول :

وتلك التوطئات غرضها اعداد الرسول لقبول الرسالة ليطمئن بها قلبه ، وليعلم انه قد جاءه الحق من ربه ٠ وهى لا تعدو فى أثرها نفس الرسول ، ولا تستهدف غيره ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم قد سبق أمر الله أن تختم به الرسالات ، وان يقضى على آثار المرسلين أجمعين ، وان يجعل دعوته عامة لكل عاقل على ظهر الارض ٠ وهو امر لم يكتمه الله عن البشر ٠ وانما هيأ له الاذهان ، ووجه اليه الانظار منذ زمن بعيد ، اعلاء لشأنه واظهارا لاهمية رسالته، وليكون الناس معها على وعد غير مكذوب ولتشرئب نفوسهم الى الكمال المرتقب وليتشوقوا الى الانتساب الى الرسالة الخالدة ، وليعلموا أن كمال النبوة وتمام الحق فوق ما حضرهم او عرفوا من أمر الانبياء والرسل وليحيى الامل نفوسا كانت تألم وتتأذى من جهل منتشر وباطل مستمر ٠

وارسال الانبياء عموما أمر لم يكتمه الله عن خلقه ، فأعلنه لهم منذ أبيهم آدم واخبرهم انه قارب الانقاذ والنجاة ٠ قال تعالى لما اقترف آدم الخطيئة وهبط من الجنة : « قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) ثم اصدر الله لرسله اعلاما غيبيا بمبعث نبى يتمم به الله ما أنزل عليهم وتختتم به الرسالات فكان هذا ارهاصا وتمهيدا تاريخيا لمحمد صلى الله عليهوسلم ٠ قال تعالى : « واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ٠ قال : أأقررتم واخذتم على ذلكم اصرى قالوا :أقررنا ، قال : فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين »(٢) فصار الناس بذلك على موعد مع الزمان بمبعث نبى نوه الله بذكره ، واخذ العهدله عليهم منذ الزمن السحيق ٠ وفى الاية دلالة بينة على علو مكانة النبى الموعود به، والحقبة الزمنية المبعوث فيها ٠ ومن ثم ألح بدعوته منذ أجيال وأجيال ٠ وبهذا يجعل الله ميعاد مبعثه منارة تاريخية ، يجمل ان نتخذه حدا فاصلا فى التاريخ البشرى : ما كان منه قبل محمد وما يكون منه بعد محمد صلى الله عليه وسلم ٠ وكان احتفاء الله به عظيما ، لانه فى تقديره – عز وجل – وتوقيته له ، حدث ثقيل فى حياة البشر ومستقبلهم ٠ وكيف لا يكون شيئا ثقيلا وحاضرهم فى الدنيا ، ومستقبلهم الاخير يومالقيامةمرهونان بما حققا من اقتراب منه ،وتصديق

١ـ البقرة : ٢٨

٢ـ آل عمران : ٨١

به ، او ابتعاد عنه وتكذيب • وبهذا يتجلى المعنى التاريخى الانسانىالعظيم فى الاية التى تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس ، على جبل الرحمة ، فى حجة الوداع « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلامدينا» (١) كان يوما مشهودا فاصلا تمت فيه الكلمة الالهية والنعمة الرحمانية على بنى آدم • وكان الله جعل من هذا اليوم قبلة زمانية اتجهت اليها أفئدة الانبياء والمؤمنين بهم ، اقرارا منهم على أنفسهم بأن كلا منهم مرحلة فى تاريخ النبوات ، وحلقة فىسلسلة المرسلين • وشاء الله فأتم السلسلة بمحمد صلى الله عليه وسلم فجاءت رسالته لا يجهلها المؤمنون الصادقون من أهل الكتاب ، يعرفونها « كما يعرفون أبناءهم » ، وهى تحمل الايمان بالرسل السابقين ، والتقدير لجهودهم فى تبليغ الكلمة الربانية الى الناس ، والثناء على صدقهم ، ومآثرهم وتضحياتهم فى سبيل استنقاذ الانسان من براثن الشيطان، وباركت جهادهم ، وحيت اخلاصهم : « وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين » (٢)•

ويبدو أن الانبياء الذين بعثوا فى الزمن المبكر ، لم يتجاوز علمهم بالنبى صلى الله عليه وسلم سوى الاخبار بمبعثه ، واخذ العهد عليهم ، أو دعوة حارة تجرى على لسان ابراهيم عليه السلام فتتفتح لهاابواب السماء ، وتلتقى بما قدر الله منذ الازل : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » (٣)فلما تأخر الزمان وانزلت التوراة والانجيل ،توضحت الاشارات وذكرت العلامات ، وصار الذين عندهم علم من الكتاب على بينة من مجيء رسول « اسمه أحمد » (٤) لا يخطئونه • ان رأوه وادركوا يومه • فقد وضح الله لهم كثيرا من علاماته : مكان بعثه ، ومهاجره ، وصفاته • ثم أتى على التوراة والانجيل ما أتى من التبديل والتغيير • وأفسدت الوثنية الدين الذى جاء به عيسى ، ودخل اتباعهمن بعده فى الشرك اذ قالوا : ان الله ثالث ثلاثة • واختفى دين التوحيد فلم يستمسك به الا رهبان اواساقفة قلة ، منقطعون فى الصوامع ، أو الكنائس يتجافون عن الناس فى شركهم ، وفساد عقيدتهم ، ولايجرؤون على النعى عليهم خوفا من بطشهم وتنكيل الحكام بهم • وأغلب الظن أن هؤلاء النفر القليل احتفظوا بصفاء دين عيسى عليه السلام ، بما خبؤوافى صوامعهم من صحف الانجيل الذى

١ـ المائدة : ٣
٢ـ الصافات : ١٨١
٣ـ البقرة : ١٢٩
٤ـ الصف : ٦

كان أقرب شيء الى الاصل الذى أنزل على نبى الله عيسى عليه السلام. قال ابن هشام لما ذكر الراهب بحيرى : « فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام ،وبها راهب يقال له : بحيرى فى صومعة له وكان اليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهب ، اليه يصير علمهم عن كتاب فيها ، فيما يزعمون يتوارثونه كابرا عن كابر(١) ويلتقى هذا الحديث بحديث سلمان الفارسى رضى الله عنه ، الذى تقلب فى كنائس عدد من الاساقفة الصالحين قبل ان يصير الى أرض العرب قبيل مبعث محمد صلى الله عليه اذ قال له اسقف عمورية وهو على فراش الموت ، وكان اخر اسقف رافقه : « والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس ، آمرك به أن تأتيه ،ولكنه قد أظل زمان نبى ، وهو مبعوث بدين ابراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب ، مهاجره الى أرض بين حرتين فيهما نخل به علامات لا تخفى : يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتم النبوة فان استطعت ان تلحق بتلك البلاد فافعل » فكان هؤلاء ينتظرون الوعد الحق : ظهور النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل » (٢)

وكانت القراءة المجردة عن الهوى فى التوراة والانجيل كافية لان تحمل أهل الكتاب على الايمان : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته اولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون (٣)

لقد نزلت التوراة والانجيل يحملان الشهادة التاريخية الواضحة الثابتة على سر من أسرار الغيب العظمى لم يكتمه الله ، ولم يجمله ، عن اليهود والنصارى اعذارا لهم ، وليكونوا السباقين اليه . ومن أولى بنصر كلمة الله ممن يعرفها ؟ولكنهم كانوا قوما فرقوا دينهم شيعا واحزابا، وأتت عليهم عصور من الحسد والبغضاء والعصبية فلم يفلحوا فى التجرد من ذلك ، والاخلاص للحق المنزل ، فمن الله بالدين على قوم أميين سلمت فطرهم من رسوبات الخلاف الدينى ومن العقد النفسية ، والصيغ المنطقية الموات ، فلم يلبثوا ان صاروا به خير الامم ــ والحمد لله والمنة ــ

ح ــ التهيئة الاجتماعية :

هذه توطئات بالنبوة ، منها نفسية ذاتية ، ومنها تاريخية لتعد النفس النبوية والفكر الانسانى الدينى فلا يبدو الوحى غريبا للموحى اليه . ولا الى الذين عرفوا الكتب المقدسة من

١ــ السيرة لابن هشام : ص ١٨١

٢ــ المصدر نفسه : م ص ٢١٨

٣ــ البقرة : ١٢١

قبل ، فهى بذلك تصل النبى صلى الله عليه وسلم بالافق العلوى وتجعله على شفا الوحى والرسالة ، وتضعه حيث وضعه الله فى السلم الزمانى من تاريخ النبوات .

غير أن الرسالة لا بد لها من ظرف اجتماعى تملؤه وتتحرك فى انحائه ، وتنتشر فيه . ومن ثم كانت التوطئة الاجتماعية ، واعداد من حول النبى للتصديق بنبوته أمرا يتسق والتوطئة النفسية والتاريخية .

ولو نظرنا باقى المجتمع القرشى، قبل المبعث لوجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ملحوظ المكانة فيه ، ظاهر الشخصية ، مرضى السيرة ، مرجوا للخير ، يدل على ذلك لقب « الامين » الذى أضفوه عليه . وهو لقب — لو سبرنا بعيد مدلولاته — ضخم المحتوى . فالامانة سجية تجمع لصاحبها سلامة السريرة والسلوك ، وصدق الطوية والفعل ، فلا تناقض بين مظهره ومخبره ، بل يصدق فعله قوله ، ويصدق قوله وجدانه وخبيئة نفسه . فالامانة أول معنى لها الاطمئنان والثقة : اطمئنان الاخرين الى شخص الامين ، وثقتهم بما يصدر عنه . وهى سجية لا يشهد بها لامرىء الا بعد التجربة والاختبار المتواتر (١) المستمر .

ويمكن أن يقال بحق : ان الامين من أمن الناس لسانه ويده . وهكذا كانت قريش قبل المبعث لا تخشى من رسول الله صلى الله عليه وسلم معرة ،ولا يتخوفون منه كذبا ، ولا يتوقعون منه الا استقامة ، وخطة حميدة ، ولا يعرفون فيه الا نبلا وشرفا ووفاء . ولا نكاد نجد لقبا أجمع لخصال المروءة والرجولة والعدالة من لقب الامين . وهى خلال ترشح صاحبها لسدة الرئاسة والزعامة . وهو لقب ينطوى على خصال نابعة من الذات ، ومن جوهر النفس ، ولا ينم عن صفة جسدية (كلقب أبى لهب مثلا) أو على خصلة وحيدة غالبة ، منفصلة عن مجموع الخصال التى تؤلف التكامل فى الخلق والنفس ، (كلقب الفيض والفياض مثلا للكريم المتلاف) ولا أظن ان لقب فى قريش غير محمد بهذا اللقب . ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فى قومه زعيما ، ولا طالب زعامة ، ولم تعرف له — قبل النبوة — فئة تدعمه ولا شاعر يمدحه . فيكون لقبه منهم ، وانما هو لقب فاز به باجماع قريش كلها رجل كان ابعد الناس عن حياة ذات قصد نفعى ، او اشادة

١ـ لما وقف رسول الله صلى الله على الصفا وقال لقريش : رأيتم لو اخبرتكم ان خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم .صدقتمونى ؟ قالوا نعم . من حديث رواه ابن كثير فى البداية والنهاية ح ٣ ص ٣٨عن الامام احمد

بالذات ، وأزهد الناس فى تقدم الصفوف ، بلد الرئاسة والشرف · وبهذا يكون مجتمع مكة قد شهد على نفسه ، وشهد عليه التاريخ بأن محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى كان وحيد قومه فى خصال الخير ، وأسباب الفضل والعدل ، ومؤهلات الزعامة · ولو تحرينا الانصاف قلنا : ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان ولم يزل وحيد الناس ، قاطبة ، فيها ·

ونحن الذين نؤمن بالله ربا وبمحمد نبيا لا نطلب الدليل على صدق ذلك· ولكن الله أقام الادلة ــ على ما ذكرناه ــ فى أحداث اجتماعية هامة ، لمن شاء أن يتفكر وان يتدبر لتظهر هذه المزايا على حقيقتها فى مجال التطبيق والعمل فى أصدق مظهر من الواقع · وخير حادثة اجتماعية يحيط اطارها بهذه المزايا حادثة الاحتكام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رفع الركن الى مكانه من الكعبة ، عند تجديد بنائها قبل المبعث بخمس سنوات ·

لما بنى ابراهيم واسماعيل ،عليهما السلام ، بيت الله الحرام ، وأذن ابراهيم فى الناس بالحج ، وجاءه المؤمنون من كل فج عميق ، وغبرت على ذلك القرون ، احتلت الكعبة مكانها الاقدس فى قلوب العرب ، وصارت حرمتها عندهم فوق الحرم ، وعلت مكانة الذين حولها يتعهدون الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والعمارة والشعائر · وتمتعوا بنفوذ وسلطان وأمن ، وأصابوا سؤددا وغنى · فتنافس المتنافسون من جرهم ثم خزاعة على مكة وبيتها الحرام ، واستضعفوا ابناء اسماعيل ،وغلبوهم على أمر البيت· فاعتزل ابناء اسماعيل السلطة والحكم ، وصاروا قطعا حلولا وصرما فى قومهم بنى كنانة » (١) فى السهول والبوادى والجبال ، فيما حول مكة ، يكاثرون، ويظهرون على مناوئيهم حتى رث أمر خزاعة ، فجمع أحد رجالاتهم الاشداء، قصى بن كلاب ، القبائل من فهر ، وهى التى تؤلف بمجموعها قريشا ، واستعان بقوة من اليمن (٢) ،وضرب خزاعة ضربة قاصمة خلصت مكة بعدها له ، وانتهى اليه الحكم فيها بغير منازع · وكان قصى بن كلاب أول جد قرشى ، لرسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم حكم مكة فاجتمع له ما للملوك من أسباب الملك ، ومن المهابة والسلطان · فدانت له قريش كلها بالسمع والطاعة وجمع فى يده السلطة السياسية والدينية ،فأتاح ذلك لابنائه (٣) فرصا للنبوغ

١ـ ابن هشام م ١ ص ١١٧

٢ـ قضاعة وكان عليها رزاح بن ربيعة أخو قصى لامه · انظر ابن هشام م١ص ١١٨

٣ـ انظر ابن هشام م١ص ١٣٠ـ١٣٧

والظهور والشرف والثراء ٠ ولم يكن له فى قريش كلها منافس ، وما كان أبناؤه يخشون من بعده مزاحما ، وبدأ البيت الحاكم فى مكة فى أحسن أحواله منعة جانب ، واتحاد رأى ومذهب ٠ ولكن قصيا قبل وفاته أحدث فيه أول زعزعة ، اذ جعل الامر من بعده لابنه عبد الدار ، وهو أقل أولاده حظا من شرف وسؤدد ، وكانت الانظار تتجه الى عبد مناف لما أصاب من شرف فى حياة أبيه ، ولكن الاخوة أذعنو لامر الاب المهيب ، والامر الحازم ، فقد كان قصى « لا يخالف ولا يرد عليه شيء صنعه » ٠ واستطاعت هيبة قصى ، ومراعاة أبنائه لحقه ، واحترامهم لكلمته فيهم ولذكراه أن تحفظ الامر بينهم من بعده كما أراده ابوهم من غير شقاق أو خصام ٠ وحكم عبد الدار واكتنفه اخوته يساعدونه يعملون لبيتهم ولانفسهم ، لا خلاف ولا نزاع٠ ولكن أبناءهم من بعدهم لم يكونوا مثلهم فى ضبط النفس ، والحفاظ على وحدة الحكم فحمى وطيس المنافسة بين ابناء العمومة : بين بنى عبد مناف وبين بنى الدار ٠ وكان لكل فريق أنصار ، ومؤيدون متكافئون ٠ وأتى على قريش يوم اذا البيت الحاكم فيه بيتان ، واذا القبيلة قبيلتان ، قد تعاقد كل فريق على الموت والفناء فلم يبق الا السيف والدم ٠ كانت هذه اللحظة شديدة الحرج ، بالغة الخطر فى حياة قريش ، ومستقبلها كله ، لان النزاع لم تقف بوادره عند أصحابه بل لف القبيلة كلها ، فكان الضياع والخسران والغدر الماحق فى انتظارهم جميعا ٠ واذا تكافأت القوى المتصارعة وخاف الخطر الناس جميعا أتيح للعقل دور ، وللحكمة مكان ٠ وهكذا كان اذ تداعى الفريقان الى الصلح ، وانتهى الاتفاق الى اشراك بنى عبد مناف فى حكم مكة (١) ٠ ثم لم يلبث بنو عبد مناف أن عزوا بنى عبدالدار بمكارمهم ومآثرهم ، فأخملوا ذكرهم وانصرفت السيادة لبنى عبد مناف ، وارتفع المجد والشرف بهم ٠ وتعلقت بهم قلوب قريش من غير اكراه ، وظفروا بتقدير العرب ، واحترام غيرهم من الامم (٢) بما أوتوا من كياسة وخطة حكيمة نفعوا بها بلدهم وقومهم ٠

والحق أن البيت المنافى ظهر فيه شخصيات لم يظهر لها نظائر فى بيوتات قصى الاخرى ٠ كان هاشم بن عبد مناف من أقواها ، وعبد المطلب بن هاشم من أعلاها ــ قبل الاسلام ٠ وقد أقرت قريش كلها بالسيادة لهما٠ ولكن النزاع الاول خلف وراءه مضاعفات

١ــ انظر ابن هشام م١ ص ١٣٢

٢ــ عقدوا اتفاقيات اقتصادية مع الشام والروم والعراق واليمن ٠ وماتوا ــ الا عبد شمس ــ بعيدين عن مكة فى تجاراتهم ومهامهم

نشأت منها أعراض خطيرة فى قريش: لا شك أن قريشا عند النزاع لم تختلف فيما بينها على زعامة آل قصى ، اذ كانت تسلم بزعامة هذا البيت تسليما ، وما كان فيها أحد على مستوى المنافسة ، انما كان الخلاف على أى ابناء قصى يكون زعيما •ولكن الخلاف بعث فى قريش حركة سياسية : دبت خفية ، ثم حبت خفيفة • ثم سعت عاملة نشيطة :

لما انقسمت قريش حول أبناء قصى فريقين يختصمان فيهم ، كان هذا – ولاول مرة – اشراكا فعليا لها فى السياسة الداخلية للحكم ، واسهاما عمليا فى اختيار الزعيم ،أو الاتفاق عليه • وقد وقف كل بطن منها فى السلاح فى وجه الاخر يومذاك وحمل هذا معه روح الانشقاق والتنافس •• واذا كان الصلح قد رد السيوف فى أغمادها ، فانه لم يرد الى القلوب صفاءها ورضاها ، وأصبح من العسير أن يرضى بطن من البطون ، بحظ من الشرف والمكانة أقل من حظ خصومه• فنشطت حركة من التنافس الداخلى بين بطون قريش ، ظلت فى غلوائها حتى فتح الله على محمد صلى الله عليه وسلم مكة المكرمة • وقد دفع أحقاد قصى وهاشم وأخوته هذا التنافس الاجتماعى قدما »فى طرق مأمونة ، ففتحوا لقومهم مجالات السعى والكسب الوفر ، وعقدوا لهم الاتفاقيات التجارية مع الامم المجاورة ومهدوا لهم السبل ، ونظموا لهم رحلة الشتاء والصيف ، فانطلقت قريش من قبيلة تكتسب من التبادل المحلى ، الى بيوتات تجارية يضربون فى الافاق وتنصب فى أوعيتهم الاموال • وتفتحت مواهبهم، واتسعت مداركهم ، وعرفوا الخطأ من المجتمعات • ورفع هذا من قدرهم عند العرب جميعا ، وصرفهم هذا السعى الخارجى عن التنازع والصداع فى الداخل • فلم تلق قريش من تسويد أبناء قريش الا خيرا ، ولم تنازعهم على ما فى أيديهم من أمر البيت ، بل أولتهم أمورها ، ورضيت عن سياستهم فيها •وأجلت قريش بعد قصى رجلين من أحفاده هاشما ، وابنه عبد المطلب ، أقرت لهما بالسيادة ، وأعظمت مكانهما • وأتت على قريش فى تطورها الاجتماعى عشرات من السنين ، تبدلت فيها المنازل الاجتماعية تبدلا ملحوظا –كما هو الشأن فى التطور الاجتماعى لكل أمة – فاغتنى كثير كانوا فقراء ، وافتقر قوم كان أهلوهم ذوى مال • ونبه من كان خاملا ، وتقدم الى القمة كثيرون لم يكونوا شيئا مذكورا• وصارت أكثر بطون قريش أفراس رهان ، وقد نزلوا كلهم الى الحلبة بعد موت عبد المطلب –آخر سيد فى قصى قبل الاسلام – ولم يستطع ولده ابو طالب من بعده ان يحتل مكان أبيه (فكانت أمور البيت بينه وبين أخيه العباس)، وان كانت قريش تجل مكانه ، وترعى جانبه ، وتعلى قدره • فكان أبو طالب سيد بنى هاشم وبنى عبد مناف ، ولم

تكن سيادته فى قريش كلها • يشهد بذلك أن أبا جهل استطاع أن يؤلب عليه قريشا ، ففرضت عليه الحصار الاقتصادى ، والعزلة الاجتماعية فى الشعب ، حين استشرى العداء بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين •

لقد ظهرت أزمة سياسية حادة بعد موت عبد المطلب نتيجة الحركة السياسية الاجتماعية السابقة ، هى أزمة الزعامة : لمن السيادة فى مكة بعد عبد المطلب ؟ كان كثير من البطون على قدر متقارب من الوجاهة الاجتماعية ، مما جعل الازمة عسيرا حلها • وهذه الازمة وان لم تعلن عن نفسها فى شعر أو ندوات أو تكتلات سياسية ، فقد كانت كامنة فى الانفس على أهبة الظهور ، عند أية بادرة ، فيها للتنافس مجال • وهذا ما حدث حقا عندما اختصمت قريش فيمن يرفع الركن الى موضعه ، وهم يبنون الكعبة ؟ ان من يرفع الركن يومذاك هو السيد المطاع • ربما ما كانوا ليختلفوا على عبد المطلب لو كان حيا ، ولكن قريشا فقدته ولم تتفق على غيره • وكانت أزمة حادة قسمت مرة اخرى قريشا الى فريقين ، وكادوا يحتكمون الى السيوف • لقد فقدوا السيد والزعيم • وودوا لو يظفرون به حتى لا تراق دماؤهم على جدران الكعبة المقدسة المشرفة •

وانتظروا ، وقلبوا بينهم أمرهم ؛ وقالوا : ليقض بيننا أول من يطلع علينا من باب الصفا • وطلع عليهم الزعيم : طلع محمد بن عبد الله • وكان صوت واحد مجلجل ، كله فرح ورضا وقبول : « هذا الامين رضينا ، هذا محمد »(١) •

لقد كان محمد بن عبد الله ــ اذ كان رجل الموقف ، كان الزعيم المرتجى ؟ فما سبب هذا الرضا الجماعى ؟

لن تتعب أنفسنا بالتنويه بنسبه العريق • وهو وان كان من أسباب الرضا ، لكنه لم يكن السبب الاساسى فلو كان كذلك ، فان أبا طالب كان بين ظهرانيهم ، وهو أسن منه ، وسيد عشيرته يومذاك • ولكن السبب فى شخصه لا فى نسبه ــ مع احترامنا البالغ لنسبه الزكى صلى الله عليه وسلم • لقد قالوا : « هذا الامين » فأشاروا اليه باللقب ، ولم يشيروا اليه بالنسب •

كانت الامانة سر الرضا ، وهى صفة اوضحنا مدلولها ومضمونها ، وتفرد رسول الله بها • وكانت قريش تبتغى حكما ، مجردا من الهوى ، قادرا على أن يلقى عواطفه العصبية جانبا ، وان يعلو على خصومتهم ، فيقضى بينهم ولا يدخل فيها • ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا

---

١ ــ ابن هشام م١ ص ١٩٧

قرشيا هاشميا من البيت الذى يلى شؤون الكعبة ، وما هو بالغريب عن قضايا قومه ، وما يحزبهم • ومع ذلك رأت فيه مختلف البطون من قريش ضالتها المنشودة ، ومفتاح الفرج فى أزمتها العصيبة • فهذا الامين فى اعتبارها ـ اذن ـ فوق العصبية المحلية : رجل يستطيع كل قرشى أن يجد عنده الانصاف والعدل والنزاهة• لا يخشى منه تحيز ، ولا ميل عن الحق الى قريب ، أو صديق ، أو نصير •

حقا قد احتكمت قريش الى رجل منها، ولكنه فى هذا التقدير فوقها كلها : رجل لا يعبد ما تعبد ، وليس من دينها فى شىء ، هو عندها مثال العدالة ، والاستقامة ،والصدق •

وعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فى نفوس القوم ، وما هم فيه من خلاف ، وحضره الحل المرضى توفيقا من الله وعونا • أمر بثوب ، فبسط ووضع الركن فيه ، وجعل ممثلى البطون على اطرافه ، وأمرهم أن يرفع كل من ناحية ، حتى اذا حاذوا مكانه ، رفعه بيديه الطاهرتين، ووضعه فى مكانه وبنا فوقه •

لقد كان رافع الركن الى موضعه ابن ابراهيم عليه السلام ، الذى دعا ربه مخلصا « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم » (١) فوضعه محمد صلى الله عليه وسلم فى المكان الذى وضعه فيه أبوه من قبل أول مرة عندما رفع البيت •

ورضيت قريش أن يفوز كل منها من الشرف بنصيب ، وبردت بذلك اكبادها ولكنها رضيت بأمر أعلى وأبعد مغزى : رضيت أن يفوز بالشرف كله محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب اذ كان هو الرافع للركن ، حقيقة •

لقد كان فى هذه الحادثة معتبر أى معتبر ، لو استطاع خصوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان يردعوا نفوسهم بعد المبعث ، وان يحكموا المنطق والعقل ، كما فعلوا عند تحكيم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم أطلقوا لغرورهم ولهواهم العنان ، وركبوا الشر ، فانتهى من لم يسلم منهم الى سوء المصير •

ان الدرس البليغ الذى كان بامكان قريش ان تتعلمه من نجاح رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، فى حل أزمتها فى الجاهلية ، هو أن هذه القبيلة ذات الحيوية والامكانيات ، لا يمكن أن يستقيم أمرها وتتحد كلمتها ، وتبلغ الفلاح ، حتى تتخلى عن العصبية الضيقة وتذعن للحق ، وتنقاد للناصح الامين • ولقد دعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد سنوات ثمان من بناء الكعبة الى الحق ، فاستنفرت عنه ، فذاقت ما ذاقت من الويل والخسار ، ولم

١ـ البقرة : ١٢٩

يصلح شأنها ، ولم تبلغ عزها الحق الا عندما اسلمت له يوم الفتح وانقادت والتفت حوله كما التفت حوله يوم رفع الركن ٠

٤ـ القدوة :

ولكن لم خص الله أنبياءه بتلك العناية الكبرى والحفاوة العظمى ، وصنعهم كما أراد ، كما قال لموسى عليه السلام ، (ولتصنع على عيني!)(١)

لاى دور عظيم أعدهم الله اذ صاغهم الصياغة النبوية الفريدة ؟

لو علمنا جلال المهمة الملقاة اليهم لعرفنا بعض السر ٠

لقد ألقى اليهم واجب ثقيل ليس مثله فى المهمات العظام شىء ابدا ، انه الواجب الذى يملى عليهم ان يبدؤوا عصرا جديدا ملؤه النور ، ومدنية محدثة شعارها العلم والتقدم أو ان يكونوا أمة هادفة الى انقاذ الانسان واسعاده بالبلوغ به مرضاة ربه ٠

ان الله يختار للنهوض بهذه المهمة التى تنوء بأمم الارض كلها رجلا فردا ٠

فكيف أدى النبى ما عهد به اليه ، وانفذه على وجهه ، فتوفاه الله وقد بلغ الرسالة وأدى الامانة فجعله فى الخالدين ؟

ان الالمام بذلك يعين سبلا وحدها تسلك ، وطرقا وحدها تتبع فى احياء حضارة الانسان بالعلم والايمان ٠وما من مؤمن يطلع على مواقف الرسول الخالدة (ص) فى القرآن والسيرة الا يتقن أن استيعاب روح هذه المواقف وتمثلها هو الخطة الوحيدة فى تكوين مجتمع اسلامى صحيح سليم٠

انه وجب الاقتداء اذ ثبت الاصطفاء ٠

واذا كان من العسير علينا أن نحيط بتلك المواقف فى هذه العجالة ، فالاشارة الى بعضها كافية :

أـ الاقتراب :

وأول هذه المواقف وأعظمها خطرا هو انفصال الرسول (ص) نفسيا وروحيا عن عصر الجاهلية ،والاتجاه بالقلب والنفس الى العالم الاعلى ، الى الله ، وهذا المسلك مبدأ الانطلاق فى تكوين الامة وبزوغ حضارة الاسلام وقد سمى الله تعالى هذه الطريقة بالاقتراب ٠ قال تعالى لمحمد (ص) « واسجد واقترب » (٢) ويغدو النبى بانفصاله عن الواقع الجاهلى مركز اشعاع متجدد ، يجتذب اليه عناصر مجبولة على الخير ، نافرة من أذى الجاهلية فتسبح فى فلك النبى ، وتخضع لجاذبيته وتستلهم منه القيم والمثل فتتفجر امكانياتها بتأثيره فى طريق الخير ٠ وتنصرف قلوبها الى الله تريد وجهه ٠ انهم الرجال المعرفون بالصحابة الذين

١ـ طه : ٣٩

٢ـ العلق : ١٩

صنعوا بقيادة الرسول (ص) لهـم تاريخ الدعوة الاول ، وقد صدرالامر الالهى للنبى (ص) بالتزام هذهالفئة التى هى نواة المجتمع الاسلامى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم ، تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ، وكان أمره فرطا » (١) ٠

وأوصى اللهنبيهوالمؤمنين بالانقطاع اليه فقال « وتبتل اليه تبتيلا » (٢) فكان التبتل فعال الاثر فى سيرة الرسول الكريم اذ جعله فى منأى عن الزلل والخطأ ٠ فجاءت سيرته عليه الصلاة والسلام وحياته فى المقام الاسمى من الكمال والتمام ، والبعد عن النقصان والانحراف ٠ ولم يفارق هذا التبتيل مرحلة من مراحل الدعوة وموقفا من مواقف الرسول (ص) العامة ٠ والخاصة ٠ ألم تكن قرة عينه فى الصلاة ألم يكن يقوم الليل حتى تتورم قدماه ؟

ولقد سرت هذه الروح الى الصحابة ، رضوان الله عليهم ، فحققوا خالد المآثر ، وكانت عندهم شيئا قليلا فيما عرفوا لله من حق عليهم ٠

ومن ثم لا تبعث الروح الاسلامية وقادة كما كانتفى الصدر الاول الا بجلاء النفوس وتنقيتها واعدادها لاستقبال الاشعاع الثاقب الحى ، الذى نتلقاه من الرسول (ص) ، ان أوغلنا فى سيرته وعشنا فى ظل مواقفه ، وفى صميم مبادئه ومقاصده ولا ينشأ جيل كالجيل المحمدى الاول الا اذا جليت القلوب منصدأ القرون ، ومن اوزار المبادىء الدخيلة ،والافكار الغازية ، والمفاهيم المخالفة للفطرة ٠ فاذا نجحنا فى التحرر والاقتراب من مركز الاشعاع الروحى أحيا الله فينا ما أحيا فى الصحابة ، وبعث منا جيلا كجيلهم ٠ ولهذا نرى فى فترات متباعدة من تاريخنا رجالا متميزين ، لا يشبهون غيرهم ،يعيشون كالاغراب فى عصورهم ، روحهم واسلوبهم ، روح الصحابة واسلوبهم ، لا يخافون بأسا ، ولا يخشون رهقا ، يرهبون ولا يرهبون ينتصرون ولايهزمون ، وان ضاقت بهم أنفس الطغيان فسجنتهم أو عذبتهم ، أو قتلتهم فان فى موتهم النصر اذ يسجلون بذلك على الطاغية هزيمته النفسية أمام مبادىء الاسلام والحق والعدل ٠

ان أبا جهل لما غيب حربته فى حشا سمية ام عمار بن ياسر « رضى الله عنهم » كان قد تردى من الهزيمة النفسية فى « غور »سحيق ٠

ان استشهاد رجال الحق يزيد شعلة الايمان توهجا ، وليل الطغيان وحشة وهولا ٠

(البقية فى صفحة ١٩٢)

١ـ الكهف : ٢٨

٢ـ المزمل : ٨